النص الصوفي من منظور سيمياء الأهواء

الدكتورة : رحيمـــة شيتر
قسـم الآداب و اللغة العربيـــة
جامعة محمد خيضر- بسكرة ، الجزائر

ملخـــص:

تهتم سيمياء الأهواء بالبحث في الهوى الإنساني الذي يتجاوز فيه الفعل حدود المقبول ،للبحث في الآثار المعنوية لتجلي هذه الأهواء في الخطابات , وقد وقع الاختيار على نص صوفي يفترض البحث أنه يستجيب لمقتضيات سيمياء الأهواء ليرصد أثار الهوى الصوفي وتحولها من مستوى سطحي إلى مستوى عميق خاصة وأن الهوى في المعجم الصوفي هو أول مقامات المحبة .

Abstract :

The semiotics of passions treats the passion of human when it passed the limits it also analyse the passion as aspeech acts and it study its efects on the descoure.

The articale choose a poetry from « turjuman alashwaq » and try to see the language of sufi which was builden from the language of love poetry but it changed the beloved and the goales .

اهتمت السيمياء بالعلامة و نظرت إلى الكون بأسره على أنه مجرة من العلامات التي تتفجر دلاليا، فعالجت العمل و العناصر المصاحبة له من إشارات و حركات تنوب مناب اللغة في أداء الرسالة ،وقد" أعطت سيميائة العمل أهمية كبيرة للتحول و العامل، و لم تول أدنى اهتمام للحالة التي تعتبرها الذات الفاعلة إما بداية العمل أو نهاية له" [1] ،رغم أن الحالات النفسية أو الشعور غالبا ما يكون محفزا على الفعل ،أو متجليا فيه ،أو دافعا إليه، فالحالات النفسية تشكل محركا للعمل والتلفظ تجسد لمختلف الرغبات ،إذ نتكلم دائما قصد انجاز شيء ما تحركه رغبة أو إحساس معين. و يتكون "هذا العالم العاطفي ضمن السياق التركيبي للخطاب ،وقد لا يكون الفعل العاطفي أو الهووي مرتبطا بالخطاب إذ يتراءى في إطار الجسد أو السلوك الإنساني؛ فالحب مثلا له علامات جسدية دالة تتضافر للكشف عنه كتبدل اللون وحركات العين ...الخ، و الغضب أيضا له دوال جسدية قد ترتبط بتغير اللون أو ممارسة سلوكات معينة كالصراخ أو التكسير أو الضرب ،و هي سلوكا تجسيدية مردها حالة نفسية و رغم أن الأهواء و العواطف علامات دالة ،إلا أن الاهتمام العملي بها و بلورتها منهجيا كان متأخرا كما سبق الإشارة إلى ذلك، وقد اختلف المنطلقات المؤسسة للبحث في سيمائية الأهواء و العواطف؛ إذ ربطت أحيانا بالتلفظ وعولجت في إطار الفعل الكلامي، فباريت "ينطلق من المنجزات التلفظية و التداولية لنظرية أفعال الكلام للتدليل على القوة العاطفية التي تكشف حضور ذاتية المتكلم في الخطاب و بيان أن درجة القوة أو الهوى هي التي تستوفي أحد شروط الفعل الكلامي" [2] ، فالأهواء و العواطف محفزات على الإنتاج التلفظي من جهة و من جهة أخرى هي فضاء للكشف عنها فالتلفظ يفضح الكوامن النفسية وقد قيل تكلم لأراك.

إن الفعل الكلامي بمكوناته يكشف قوة عاطفة معينة، تطفو للسطح على حساب عاطفة أخرى كما في المثال التالي:

أاصباح الخير(في الصباح).

ب\اصباح الخير (بعد تأخر شخص في فهم قضية ما)

توجد في المثالين تحية صباحية ،و لكن تحليل الفعل الكلامي يكشف اختلاف القوة الإنجازية الناتجة تبعا للحالات النفسية أو الأهواء التي تحركها، ففي المثال الأول قوة الفعل الانجازية هي التحية الصباحية، و يتوافق فيها المعنى الحرفي للمنجز مع دلالته (عاطفة اجتماعية تواصلية). أما المثال الثاني فإن التحليل يكشف أن العبارة ليست للتحية و لكن للاستهزاء ،فتظهر عاطفة الاستهزاء و السخرية لتصبح هي القوة الانجازية المتوخاة. لقد ركز باريت على بعد التداولية و قدرته على الكشف عن البعد العاطفي، أما قرايس و جاك فونتاني فقد نظرا إلى سيمياء الأهواء من منظور مختلف إذ "انطلقا من معاينة و تحليل الخطابات المنجزة (خطاب المعجم . خطاب علماء الأخلاق .الخطاب الأدبي).[3]لتحليل السيمائي لعاطفتين هما البخل و الغيرة و استثمرت سيميائية الأهواء" في الشروط القبلية للدلالة (...) إذ تعنى بمساءلة مجموعة من الشروط و الشروط القبلية و الشروع بعد ذلك في وضع صورة للمعنى سابقة و ضرورية لتمفصلها .

كما تعمل سيمياء الأهواء على تحليل العاطفة أو الهوى في عدة مستويات و مجالات، راصدة حركية خروجه من الأعماق إلى السطح عبر تمظهراته في مختلف الخطابات التي تحف بالبعد الهووي المدروس .

وبعد عمل جاك فونتاني و قريماس جاء دور آن اينو) التي اهتمت بكيفية بروز علامات المحسوس كتابة و في أي شرط يمكن للبعد الاستهوائي التلقائي و الخفي و المستثمر إلى حد ما في عمق الخطاب أن يصبح عيانيا".[4]

و لعل أهم الملاحظات التي يمكن أن نستخلصها مما سبق ما يلي: 1\ارتباط سيمياء الأهواء بالسياق فتحليل البعد الهووي يختلف من نص إلى أخر بل أكثر من ذلك يختلف من لغة إلى أخرى.

2\ تتباين المنطلقات في سيمائية الأهواء إذ ينطلق البعض من الهوى و تجليه في الخطاب و ينطلق البعض الآخر من الخطاب للكشف عن البعد الهووي .

3\يرتبط البحث في البعد الهووي بالافتراض و يتأسس في كثير من جوانبه على المعارف المسبقة.

المغامـــرة التطبيقيـــة :

تسعى هذه المداخلة للبحث في النص الصوفي من منظور سيمياء الأهواء، مستندة في ذلك إلى طبيعة الموضوعات التي يعالجها الصوفي في نصوصه الإبداعية، إذ أن مدار الأمر هو التغني بحب الذات الإلهية و العروج إلى عليائها، فقد "حاول الصوفية أن يرتقوا بتجربتهم من المستوى البشري العادي إلى مستوى خصوصي جدا ،هو التشبه بالحب الإلهي الأزلي و يميز ابن عربي بين نوعين من الحب الإلهي، حب الله للعالم و الموجودات و بهذا المعنى سيكون الحب صفة إلهية أزلية ، و حب الصوفية لله وهنا سيكون الحب صفة إنسانية غير أن غايتها هي التعلق بالألوهية".[5]

كما يتوسل النص الصوفي على مستوى أنساقه اللسانية بنصوص قبلية مدارها الهوى، الذي يتجلى في عدة أنماط كالحب، الخمرة ،الرحلة، الطلل ولكنّ عبر سلسلة من التحويرات تنقله من الحدود المعقولة إلى فضاء التجاوز ، فالنص الصوفي نص في هوى الحق يبنى على نصوص في هوى الخلق كما أنه يتشكل لسانيا وفق تركيبة معقدة كما سنرى

النص الصوفي و اللغـة المضاعفـــة :

لقد عرف الشكلانيون الأدب بأنه استعمال خاص للغة ، فاللغة ملك شاع لأداء التواصل اليومي ،غير أن التواصل الفني يفرض نمطية استعمالية مميزة، تنقل اللغة من طور الاستعمال الاعتيادي، إلى طور الاستعمال التغريبي الذي يهفو لكسر الألفة لخلق الدهشة ، غير أن النص الصوفي شكل استثناء؛ إذ يتوسل بنصوص إبداعية أخرى و إذا سلمنا أن هذه النصوص هي استعمال خاص للغة و الشعر الصوفي استعمال لها ،فان تعريف الأدب الصوفي يتضاعف من منظور الخصوصية الاستعمالية، فيغدو النص الصوفي استعمالا خاصا لاستعمال خاص للغة، اذ يستدعي الصوفي نصوصا في الغزل و الخمرة و الطلل لنقل تجاربه و إحساساته و إن كانت" القصيدة في الحب الإلهي التي لا تباين قصيدة الحب الإنساني في البناء و الدلالة إلا من حيث اعتبار السياق الصوفي أو من حيث بعض القرائن اللفظية و الدلالية القليلة التي تستوقف القارئ المتأني من حين إلى آخر".[6]

ووفق هذا التوجه يغدو النص الصوفي خاضعا لثنائيتي الانفتاح و الانغلاق ،إذ ينفتح على النصوص القبلية مستلهما عناصرها و متوسلا بآليتها، ثم يتحول هذا الانفتاح إلى انغلاق يحتاج فيه القارئ إلى استحضار السياق الصوفي، و المعجم الصوفي لإعادة النص إلى المسار الذي ينأى فيه عن مطابقة التوجهات الحرفية للخطابات السابقة. و على هذا فالنص الصوفي يحول النصوص السابقة و يتحول بفضلها إلى علامة سيميائية تقوم على الاستدعاء التكثيفي ؛ فالصوفي يستعين بتجربتي الحب والسكر من خلال العودة إلى معلم محدد داخل هذه التجارب ،هو معلم القمة أو الذروة في الحب و هو العشق الذي يبنى على تجاوز حدود العقل "فالحب الذي يدبره العقل لاخير فيه"[7] وهو يبنى على تغييب ذات المحب وذوبانها في المحبوب ويتم هذا عن طريق تحويل تجربة الحب الطبيعي إلى حب إلهي استنادا إلى العلاقة بين الإنسان والله ؛فالإنسان خليفة الله في الأرض وعليه يتوسل الصوفي بهذه التجربة لبناء مسار عكسي في الحب، ينطلق من الموجود العيني إلى الموجود الغيبي .

ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة للنصوص الخمرية كما في المثال التالي يقول: أبو مدين التلمساني أدرها لنا صرفا و دع مزجها عنا فنحن أناس لا نرى المزج مذكنا [8] إن مفهوم السكر في مستواه الصوفي ،يبنى على التحول الدلالي لمفهوم السكر العادي ،الذي يتأسس على الشرب المرتبط باللحظة الآنية و اغتنامها، بينما يتحول هذا المفهوم على مستوى الهوى الصوفي للارتباط بالزمن المطلق (مذ كنا)، و فعل الكينونة فعل متجذر، سابق على الخلق، كما أن المزج خاصية تفعل فعلها في السكر العادي يقول عمر بن كلثوم :

مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا [9] .

بينما الصفاء و النقاء هو المطلب الأساسي داخل المنظومة الصوفية الهووية .

إذن في ضوء المعطيات المتعلقة بسيمياء الأهواء و المعطيات المتعلقة بطبيعة النص الصوفي سنقوم بتحليل نص لابن عربي للبحث في كيفية تحول الهوى من شكله المادي إلى شكله العرفاني و تجليات هذا نصيا.

النص:

رأى البرق شرقيا فحن إلى الشرق و لو لاح غربيا لحن إلى الغرب
فإن غرامي بالبريق و لمحـــــه و ليس غرامي بالأماكن و الترب
روته الصبا عنهم حديثا معنعنا عن البث عن وجد عن الحزن عن كربي
عن السكر عن عقلي عن الشوق عن جوى عن الدمع عن جفني عن النار عن قلبي
بأن الذي تهواه بين ضلوعكم تقلبه الأنفاس جنبا إلى جنب
فقلت لها بلغ إليه بأنه هو الموقد النار التي داخل القلب
فإن كان إطفاء فوصل مخلد و إن كان إحراق فلا ذنب للصب [10]

يعمل السياق الصوفي على إخراج النص من طبيعته الظاهرة إلى التأويل الباطن ،إذ يشير الصوفية إلى أنهم أهل إشارة، و يقوم الصوفي بعمل يهفو إلى تصوير أو "تجسيد حالة نفسية معينة و ذوقا معينا تصويرا لغويا لأحد الموضوعات المستعارة" [11] ،إلى جانب السياق تساهم الشروح التي تلحق عادة بالنصوص الصوفية في توجيه النص وجهة معينة .

و النص محل الدراسة مزود بالشروح التي تنأى عن المعاني
الظاهرة و تنحو منحا تأويليا خاصا، يتأسس على المنطلقات الصوفية و لعل الخاصية التي تكتسبها هذه الشروح هي أنها نابعة من القائل الذي يفسر لغير العرفاء لئلا يخرج النص عن المقصدية التي انشأ لها.

ولعل السؤال الذي يطرح هنا ، هو هل ضيق المبدع على القراء بشرح نصه ،و تعيين الدلالات المقصودة؟ أم انه وسع المجال أمامه حين أشار من خلال شروحاته إلى إخراج القارئ من دائرة أحادية الخطاب تبدي غزلية النص و ارتباطه بهوى مادي إلى دائرة انفتاح الخطاب ،الذي ينهل من معين الهوى المادي ليعبر عن هوى عرفاني.

في الواقع إن النص الشارح المرفق بالنص يغير بوصلة القراءة ،
و يحدد طبيعة الهوى المقصود ،كما أنه يقدم للقراء مفاتيح تساعدهم على ارتياد المجهول في هذه التجربة .

التحليـــــل:

1\ **التطابق بين المحبوب و المحب**: يبدأ النص بالا شارة إلى الآخر رأى البرق \فحن \الحن لينتقل إلى المتكلم "فإن غرامي بالبريق " ، مما يجعل الضمائر متطابقة على مستوى النص :هو = أنا و –أنا- شارحة لحالة "هو " التي تجمع العارفين بالأمر، و تتجاوز الأنا المحددة

و يمكن أن نضع الترسيمة التي توضح الذوات الموجودة داخل النص و توزع الدوال الهووية عليها وفق ما يلي :

هو1	رأى البرق /حن /فحن
أنا 1	غرامي بالبريق
الصبا	روته -ولها امتداد شرقي مرتبط بالبرق
هم	جموع العرفاء الذي يشاطرون الأنا حالها
هو 2	المحبوب بين ضلوعكم أنتم أنا على المستوى النصي (بأن الذي تهواه)
أنا 2	موقد النارالتي داخل القلب والتي تمت بفعل هو2
هو1	يطابق أنا 1 و يطابق أنا2
هو2	يطابق الأنا لأنه بين الضلوع /موقد النار داخل القلب

الأنا-المحب- يطابق هو 2 –المحبوب-

إن الضمائر تمارس لعبة إشارية ،تتبادل فيها العناصر المواقع ،فيتحول الأنا إلى هو،وهو إلى أنا ،مما يفضي إلى فناء المحب في المحبوب وهو فعل تأسيسي داخل الهوى العرفاني الصوفي .

2/ وجود المحبوب و دواله اللسانية :

يتجلى المحبوب أو الذات الإلهية في الموجودات الكونية ، إذ أن محركي الحب في التجربة الصوفية ، هما السماع و الرؤية ؛سماع كلام الله ورؤية خلقه ، وقد اختار بن عربي البرق وهو ذو طبيعة سماوية وله امتداد أرضي ،كما أنه شرقي ولكنه مبني على فكرة تجاوز المكان (رآه شرقيا فحن إلى الشرق ولو كان غربيا لحن إلى الغرب)وهذا مؤشر إلهي "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق أو المغرب"[12] كما أن البرق لا يحتويه مكان محدد

شرقا/غربا، أعلى أسفل وله وجود خاطف يرتبط بطبيعة الوصل وبفكرتي التجلي والغياب إذ يتجلى المحبوب لمحا من خلال البرق ويتجلى فعلا من خلال النار –موقد النار في القلب – فاللمح أو التجلي متضمن بالقوة في البرق المرتبط بالرؤية (رأى البرق)ولكنه في البيت الثالث ينتقل للتحقق عن طريق الرواية (روته الصبا عنهم حديثا معنعنا) ،إذ أن فعل الرواية دال لغوي على التجلي ،فبعد رؤية اللمح يحدث الغياب الذي يعادله الصمت ، وهو دال صوفي "إن لي عبادا صامتين رأو جلالي فلا يستطيعون أن يكلموه ورأو بهائي فلا يستطيعون أن يسبحوه"[13] لم يذكر الصمت صراحة و لكن ذكر عن طريق إحالة الكلام إلى ذات أخرى هي الصبا ؛وهي ريح شرقية تحمل خبرا عن فعل الوصل لاشتراكها معه في مكان التحقق(رأى البرق شرقيا) من جهة ،وتجاوزها لفكرة المكان افتراضا وتحيينا من جهة أخرى .

ترتبط الرؤية /الرواية بالسكر (عن السكر عن عقلي)،ويبدو أن السكر الوارد أفضى إلى صحو لارتباطه بالعقل ،ولكن نصيا السكر والعقل يحدثان في إطار الرواية (روته الصبا) التي كانت دالا لغويا على التجلي ؛ إذن السكر الوارد في البيت هو السكر الذي يفضي إلى صحو في الحضرة الإلهية فالصحو (العقل) يخلف الشوق ،الجوى ،الدمع والنار.

إن النار ترتبط بالرغبة في تجدد الوصل ولها مدلولات أخرى ترتبط بلحظة التجلي ولنا في قصة سيدنا موسى دليل على ذلك

كما أن النار دال على الرغبة المستمرة في معاودة الوصل الذي أعقب الغياب في ملكوت الذات الإلهية ،فهي متأججة تنتظر الإطفاء أو الإحراق .

يعد الإحراق ذروة مبتغى الصوفية ففي الحديث "يا عبدي إذا بدت الرؤية تبقي وتذر فما رأيتني ،وإذ بدت لا تبقي ولا تذر فقد رأيتني "

إذن يبنى الهوى الصوفي عبر سلسلة من المراحل ترتبط بالرؤية /الرواية، الحديث/الصمت،السكر/الصحو

و تساهم هذه الحالات في الارتقاء إلى حالة الغيبة المتعلقة بالتجلي، و فيما يلي خطاطة استهوائية تبين مراحل تدرج الهوى من المستوى السطحي البشري إلى المستوى الإلهي العميق عبر الوسائط الشرحية و السياق الصوفي :

المستوى البشري	المستوى الإلهي
الرؤية –الحنين-الغرام	الرؤية موصولة بالتجلي –رأى البرق و البرق دال صوفي على الذات الالهية و هو ذو طبيعة سماوية و منه فالحب موصول بالتجلي و الغياب –البرق و لمحه-
الفراق – رحلة البحث عن المحبوب و ما يرافقها من حزن و كمد	الرحلة الهووية أو الاستهواوية للوصول إلى المحبوب الذي يتجلى فيحدث الوصل و يغيب فيبقى الشغف إلى الوصل فتبنى الرحلة لأجل التجلي
الوصل إطفاء /البعد إحراق	الوصل مرتبط بغلبة الحال من شدة الوجد و الشوق إلى الذات الإلهية

إذن قد "يمثل الدور الاستهوائي مقطعا حساسا داخل المسار الموضوعاتي و لكن الأمر مختلفا بالنسبة للنص الصوفي إذ لا يجسد الهوى مقطعا موضوعاتيا بل هو الموضوع في حد ذاته.

الهوامـــش و المراجـــع

1- محمد الداهي ،سيميائية الأهواء،مجلة عالم الفكر ،المجلس الوطني للثقافة والفنون/الكويت مج35 ص:288 [1]

2 جاك فونتاني ،سيمياء المرئي ترجم علي أسعد منشورات دار الحوار سوريا ط2003/1 ص :87

3 محمد الداهي ،سيميائية الأهواء :ص 277

4 محمد بادي ،سيميائية باريس مجلة عام الفكر ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون الكويت مج 35 ،ص 60.

5 محمد الداهي ،سيميائية الأهواء :ص235

6 عبد الحق منصف ،أبعاد التجربة الصوفية ،منشورات افريقيا الشرق المغرب ط2007/1 ص:85.

7- ابن عربي ترجمان الأشواق منشورات دارصادر ،بيروت /لبنان دط ،ص 18

8- مختار جبار ،شعر أبي مدين التلمساني منشورات اتحاد الكتاب دمشق/سوريا ط2002/1 ص110

9- أبو زيد القرشي ،جمهرة أشعار العرب شرح ،علي فاعور دار الكتب العلمية بيروت /لبنان ط2003/2 ،ص 183

10 ابن عربي ترجمان الأشواق ، ص 53.

11 مختار جبار ، شعر أبي مدين التلمساني ص 123

12 سورة البقرة الآية 177

13 نصوص صوفية غير منشورة تحقيق بولس نوبا ،دار المشرق /بيروت دط/ص 199